

# حوار مع شريفة من الأمريكيين.. حول تغيرات ما بعد ٢٠١١



واشنطن من

أمينة شفيق

كنا خمسة مصريين يتجهون للعودة إلى القاهرة بعد زيارة سبعة أيام لواشنطن العاصمة الأمريكية. انجسنا إلى مطار دالاس ونحن على استعداد للخصوع لإجراءات الأمن المشددة، التفتيش الذاتي والالكتروني بما يتضمن من خلع الأحذية والمعاطف وكل الأشياء المعدنية. ثم المرور عبر البوابات الكاشفة. وبالصدفة البحتة سبق اثنتان منا في الطابور الطويل بينما تأخر ثلاثتنا. وبعد قيام رجال ونساء التفتيش الأشداء بالواجب. التفتينا. خصصتنا. مرة أخرى وإذ بنا نكتشف أن عضو الوفد الوحيد الذي لم تسر عليه أي من إجراءات التفتيش الصارمة كان فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر السابق وعضو مجمع البحوث الإسلامية والذي سبقنا في الطابور مع د. عماد جاد الباحث في مركز الدراسات الاستراتيجية في الأهرام. وإذا بالباحث يفتخر ضحكاً لأنه خضع لأعنف معاملة ربما لأنهم تصوروا أنه «يتمسح». في الشيخ الجليل ويريد ذات المعاملة السخنة. فانهال عليه الشخبط والأمر والنهي. واضطر للإطاعة

طبعاً. ضحكنا. لأن د. عماد مصري مسيحي أرثوذكسي. وبمنطقنا المصري. لا يمكن أن «يتمسح» بالشيخ الجليل. ولكنه كان يصاحبه في المطار ثم يجاوره في الطائرة ليسهل عليه الترجمة. رويت هذه القصة لصديقي المهندس نبية زكي فقال لي إن أحد المصريين المسيحيين من رجال الأعمال سافر إلى نيويورك وبدأ وسط إجراءات التفتيش كأنه على عجلة لمغادرة المطار. فلمحه رجال ونساء التفتيش الأشداء فسحبوه من الطابور وأدخلوه غرفة. وبعد ساعة جاؤا إليه وكان يقرأ في الانجيل. لما عرفوا أنه يقرأ الكتاب المقدس سألوهم «هل يوجد في مصر مسيحيون».

وهناك في الولايات المتحدة الأمريكية يعرفون مواقع ولاياتهم الجغرافية بمناطق الشمال والجنوب والشرق والغرب ثم يطلقون على الولايات التي تقع في الوسط الغربي الـ Midwest وفي حديث عامر بين أحد المصريين وآخر من أمريكا. سأل الأمريكي «أين تسكن؟» فأجابته المصري «أنا من الشرق الأوسط» بالإنجليزية تعني Middle East. فسمعا الأمريكي Mideast بمعنى

الوسط الشرقي فسأل الأمريكي «ماذا تعني؟». أين في الـ Mideast. وفي رواية أخرى. حدث أن سألت أمريكية إحدى المصريات. كم أخذت المسافة بين بلدك ونيويورك. أربع ساعات. فأجابت المصرية. «لا إحدى عشرة ساعة». فردت الأمريكية. «في الحقيقة نحن لا ندرس في مدارسنا إلا جغرافيا الولايات المتحدة الأمريكية لذلك لا نعرف أين تقع بلادكم». هكذا عموم الأمريكيين. أناس مغفلون على أنفسهم ربما كان وجودهم بين محيطين كبيرين جعلهم يتكلمون على نواتهم لا يعلمون الكثير عن العالم الخارجي إلا في حدود تأثير هذا العالم الخارجي عليهم. يعيشون في قارة حملت أرضها كل الخامات التي تقيم صناعات قوية كما حملت تربة فنية قدمت لهم زراعة عفية. بالإضافة إلى تنوع تضاريسها ومناخها. وهو التنوع الذي يسمح بزراعة كل المحاصيل. أناس نشيطون استطاعوا بناء اقتصاد يكفيهم ويزيد.

لم تكن هذه زيارتي الأولى للولايات المتحدة الأمريكية. ربما كانت الزيارة السادسة أو السابعة. ولكنها كانت الزيارة الأولى بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فحملت إحساساً مختلفاً. كذلك تخوفاً داخلياً. خاصة ونحن نتجه كوفد لإدارة حوار بين بعض منظمات المجتمع المدني حول علاقات الشعبين المصري والأمريكي

تشكل الوفد من أصدقاء. منتدى حوار الثقافات بالهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية. من فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر السابق والأستاذ الدكتور فتحي أبو عيانية أستاذ الجغرافيا في جامعة الإسكندرية ود. عماد جاد الباحث في مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام والمهندس نبيل صموئيل مدير الهيئة والأستاذة سميرة لوقا مسنولة المنتدى ومعهم كاتبة هذا المقال أما الطرف الداعي فكانت منظمة «أبادي» على امتداد النيل للخدمات التنموية الأمريكية. ويختصرونها بـ «hands». أي «أبادي» وهي من منظمات المجتمع المدني الأمريكي. ذات العلاقات الطيبة بعدد من الجمعيات الأهلية المصرية. كما أن البعض من مسئولياتها عاش في مصر فترة زمنية ويفهمون تركيبتها السياسية والاجتماعية. لذا. كانوا دائماً يسعون إلى إجراء حوار يفتح الطريق بين مجموعات من الشعبين بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

فكنا مجموعة من المصريين المتنوعين المتحاورين مع عدد من منظمات المجتمع المدني وعدد من الكنائس الأمريكية. وما أكثر منظمات المجتمع المدني الأمريكية وما أكثر الكنائس في هذه البلاد الواسعة. كل الذي قرأته أن حجم المال المتداول في أنشطة وأعمال هذه المنظمات قد يصل إلى ١٨٠ مليار دولار أمريكي سنوياً. وهذا غير المال المتداول في الكنائس والذي يأتي أساساً من التبرعات. أما بالنسبة لعدد المنظمات. فيصعب الوصول إلى حقيقته.



نظمت لنا «أبادي» لقاءات مع عدد من المسئولين في الخارجية الأمريكية ومع خبراء في مجلس النواب ومع عدد من المسئولين في بعض منظمات المجتمع المدني التي تعنى بالحريات المدنية وبمناهضة التمييز. كما نظمت عدداً من اللقاءات مع صحفيين في صحف محافظة وفي صحف أخرى أكثر انفتاحاً سياسياً. مع صحفيين لم يزوروا الشرق الأوسط وآخرين عاشوا في قلبه لسنوات. فنشعر بالفرق بين المجموعتين في مدى الدراية والمعرفة بظروف المنطقة بغض النظر عن الرأي الذي يحمله كل منهم

في لقاءاتنا مع بعض أعضاء منظمات المجتمع المدني. كانوا يتحدثون معنا بكل الصراحة. «أحضروا. قد تواجهون معارضة شديدة في مجلس النواب. سوف يشيرون معكم قضائياً الديمقراطية في بلادكم خاصة بعد النجاح الساحق الذي حققته حماس في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة. تضغط هذه المعارضة على الإدارة الأمريكية». أو يقولون «تنبهوا بوجود تيار on the hill أي في مجلسي الشيوخ والنواب. يضغط على الإدارة الأمريكية من أجل إعادة النظر في المعونة المقدمة لمصر».

وفي حواراتنا مع أعضاء في منظمات أخرى كان الهجوم يشن علينا. كأن سأل أحدهم «ماذا لا يلعب الخطاب الديني الإسلامي المعتدل دوره في البلاد الإسلامية؟». أو يتساءل آخر «ماذا تسمحون الهجوم على المدنيين الإسرائيليين بالمقاومة. اليس هذا إرهاباً؟» أو كما سأل أحد الخبراء. في مجلس النواب. «ما الذي فعلناه في موضوع الرسوم الكاريكاتيرية الأخير. لم تكن طرفاً فيه. لم نشره صحافتنا كما أدانه الرئيس بوش مع ذلك تهاجم المظاهرات العاصفية سفاراتنا في بعض البلدان الإسلامية» ماذا تريدون بالضبط».

كما ضمت حواراتنا الكثير من التشابه في المواقع المصرية. الأمريكية من السياسات الأمريكية. في أحد الاجتماعات قال القس جيف هاجردي. وهو قس أنجيلي من أصول إفريقية. «أنتم تتصورون أن الإدارة الأمريكية لا تستمع إليكم أنتم فحسب. إنها لا تستمع إلينا أيضاً. قبل الحرب على العراق نظمت الكنيسة الإنجيلية أكبر المظاهرات المناهضة للحرب. وعقدنا اجتماعاً كبيراً في الكاتدرائية وفي مساحة الفضاء المحيطة بها. ثم تقدمنا إلى البيت الأبيض طالبين مقابلة الرئيس لفتح حوار معه. وعندما رفض. لجأنا إلى قس من الكنيسة التي ينتمي إليها الرئيس بوش ليطلب لقاءه لرفض للمرة الثانية».

لا بد للحوار مع شعب شديد التنوع كشعب الولايات المتحدة الأمريكية أن يتسع للتباين والمساندة وكذلك المعارضة والهجوم. ولكنه لا بد أن يكون صريحاً واضحاً فالحقائق تظل معروفة ومعلنة مهما حاول البعض إخفاها. قبل لقاء خبراء مجلس النواب. علم الوفد المصري أن الخبراء رفضوا حضور مسئول من السفارة المصرية إلى الاجتماع لأنهم أرادوا أن يكون الحوار صريحاً غير مغلف. فما كان منا إلا أن ذكرنا في بداية اللقاء أن وجود السفارة لن يؤثر

على صراحة المناقشة فحديثنا في الداخل هو حديثنا في الخارج. وعندما حضر مسئول من السفارة المصرية في لقائنا في الخارجية الأمريكية أشرفنا إلى أن وجود المسئول لن يغير من مضمون الحديث في الحالتين نحن نتحدث لغة واحدة في الداخل وفي الخارج

هذا المجتمع الذي كان شديد الانفتاح والاستيعاب لكل الأفراد ولكل الآراء. لم يعد كما كان بات مقيداً. خاصة بالنسبة لآباء الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا. كذلك بات أكثر تشدداً مع كل القادمين إليه أو المغادرين له. وهو ما تلمسه في المطارات الأمريكية. وهذا أيضاً ما يلمسونه في الداخل

في حديث مع عدد من ستييفن بلوك المستشار القانوني للاتحاد الأمريكي للحريات المدنية شرح الموظف السابق في الخارجية الأمريكية أن لمنظمة خمسين فرعاً في الولايات الأمريكية الخمسين المشكلة للاتحاد وتضم أكبر عضوية مدنية أمريكية من كل الأجناس والأديان والأصول الإثنية. وأنها كمجتمع مدني تحصل على تمويلها من التبرعات وهي أكبر المنظمات التي تتجه بالدعاوى القضائية إلى المحكمة الدستورية. ولذلك يلجأ إليها الجميع من أجل المساندة القانونية. ولا تفصل بين النشر على أساس نوعهم أو أصولهم العرقية أو ديانتهم. وفي الفترة الماضية احتضنت حقوق عدد كبير من المسلمين. وتضع هذه المنظمة. في مقدمة أهدافها. عدم المساس بالمادة الأولى من الدستور الأمريكي التي تحظر إصدار أي قانون يحد من حرية الصحافة والتعبير والتدين. قال ستييفن إن الشعب الأمريكي شعب يتكفي. على ذاته وعلى مصالحه ولكنه وجد نفسه أمام حادث كبير هو الحادي عشر من سبتمبر. فنشأت في المجتمع بيئة من الخوف. ويمكن أن نطلق عليها ثقافة الخوف. كما عرف المجتمع الأمريكي خطاب الكراهية الذي كان يتلاشى مع الوقت خاصة ضد ذوي الأصول الإفريقية

ولكن تغيرت الأمور بعد حادث سبتمبر. دب الخوف الشديد في عقول وقلوب الأمريكيين. فأرادت الإدارة الأمريكية الاستفادة من هذه الحالة الجديدة. كما تفعل كل الإدارات وكل الحكومات في كل البلدان. فبات المبدأ. ألا يتم الفصل بين الفعل والفكر. يجرم الفكر كما يجرم الفعل بل بات الاشتباه في الفكر يقود إلى الاعتقال. لقد توسعت الإدارة في الإجراءات الحمائية التي تدعي أنها تجهض الفعل قبل ارتكابه. فالإدارة الآن لا تعتقل المجرم وإنما تعتقل الذي قد يفكر في الاشتراك في الجريمة. ومضى الزمن الذي لم يكن في إمكان الإدارة التنصت على المكالمات التليفونية للمواطنين أو على بريدهم الإلكتروني. إلا بأمر من النيابة

ولا يمكن إنكار أن الأمريكي العادي شكل في ذهنه صورة عن ذلك الإرهاب الذي يهدده بعد أن جاءه عبر المحيط لذلك تعمل المنظمة الآن على إلغاء فكرة التعميم ومواجهة ثقافة الخوف والكراهية وهي تحتاج لجهد كبير. لأن الخبرة تؤكد أن العمل من أجل دعم الحريات المدنية ليس بالعمل السهل الذي يتحقق في المدى القريب

وفي حديث آخر مع عدد من سبتمبر ٢٠١١ مع رئيسة اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة التمييز. شرحت كيف تشكلت هذه اللجنة من عضوية عربية كاملة بعد أن وجد العرب أنفسهم بلا غطاء اجتماعي يذافع عنهم. ويات لها فروعها في عدد من الولايات التي يتواجد فيها العرب بأعداد كبيرة. وأوضحت كيف عاش المهاجرون العرب سنوات وسنوات في الولايات المتحدة الأمريكية يفقدون الطريق إلى حقوقهم المدنية إلا بشكل فردي. في حين شكلت كل كتلة من المهاجرين الآخرين منظماتها التي تنظم صفوفها وتدافع عن حقوقها المدنية بشكل جماعي. والسيدة ماري روز ذات الأصول اللبنانية. كانت عضواً في مجلس النواب الأمريكي لمدة ٢٦ عاماً. بعد ذلك. شكلت هذه المنظمة وتفرغت لها بعد أن حصلت على تبرع سعودي سخى. ويساعدها عدد من الشبان العرب الأمريكيين المتحمين لعدد من الأقطار العربية. وتضيف السيدة ماري روز أن نشاط المنظمة يتنوع حسب المشكلة التي تواجهها. فقد تهرست على الوصول إلى «اللوبس». أي مجموعات الضغط. في مجلسي الشيوخ والنواب ودعمت من علاقاتها مع الصحافة الأمريكية وتستنصرين بالقانونيين المتفرسين على رفع الدعاوى القضائية وباتت تمتلك القدرة على تنظيم المسيرات الكبيرة

وقالت إن المنظمة تحركت مع السفارة المصرية عندما تقدم بعض النواب في مجلسي الشيوخ والنواب طالبين قطع المعونات عن مصر واستطاعت أن تنظم حملة رسائل إلكترونية وصل عددها في أحد الأيام إلى مليون رسالة. استقرت كلها في البريد الإلكتروني للنواب المتشددين

وقالت السيدة ماري روز إن المنظمة تحاول الآن نزع الخوف من عقول وقلوب الجميع ونشر فكرة أنه لا يجب وضع العرب ككلمة في سلة سياسية واحدة كما أنها تشجع العرب على التعاون مع الآخرين حتى يستطيعوا تغيير صورة العري لدى المواطن الأمريكي العادي

مرت الأيام السبعة في حوارات متنوعة شملت الدين والسياسة والثقافة. زالت هذا الاحساس غير المريح الذي صاحب طريق الذهاب إلى واشنطن وأكدت أن حواراً متصلاً لا بد أن يستمر بين الشعوب. وبين كل الشعوب. خاصة بين الشعوب العربية وجميع الشعوب الأخرى. فالأخرون لن يفهمونا إلا إذا تحاورنا معهم